الجامعة الأزهرية

كلية الشريعة

القرآن يخلق المجتمع المتفائل

محمد محمد المدني

عميد كلية الشريعة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . سيدنا محمد النبي الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان يحب الفأل ويكره الطِيَرة ، والطيرة هي توقع المكروه والشر ، أما الفأل فضدها وهو : توقع الخير ، والاستبشار بحصول المحبوب ؛ يقال : فلان متفائل إذا كان مستبشرا ، أما إذا كان متوقعاً للشر فهو المتشائم أو المتطير ؛ وفي حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا عدوى ، ولا طيرة ، ويعجبني الفأل الصالح » وإنما حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إعجابه بالفأل الصالح لأنه يحدّث عن الفطرة ، فالإنسان مشرق ومتجه دائماً إلى توقع الخير ، وإذا خُلِّيَ ونفسَه : فإنه يؤثر أن يظن الظن الحسن ، ولا يقبل على الظن السيء ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الوقت نفسه يريد أن يربي أمته على التفاؤل ، والاستبشار ، وحسن الظن بالله سبحانه وتعالى ، ويعلمهم حسن الرجاء ، لأن الناس إذا أمّلوا من الله الفائدة ، ورَجَوْا منه حسن العائدة ، كان ذلك خيراً لهم ، ولو أنهم أخطئوا في الرجاء لكانوا مع ذلك في خير ، فإن من الخير أن يعيش الإنسان متعلقا بالرجاء ولو إلى أمد محدود ؛ فلو أنه وقع في البلاء بعد ذلك ، كان قد استفاد هذه المدة التي مضت وهو متعلق فيها بالرجاء ، فهو خير له على حد قول الشاعر :

مُنًى إن تكن حقا تكن أعذب المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

ولذلك يقول العلماء : إنه يجب على المؤمنين أن يكونوا دائماً متعلقين بالرجاء فى الله سبحانه وتعالى ، وأن يحسنوا الظن بربهم ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن الظن بالله من حسن العبادة » ويقول فى الحديث القدسى عن الله رب العالمين : « أنا عند حسن ظن عبدى بى » وفى القرآن الكريم : « إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون » .

هذا المعنى الذى تدل عليه السنة ، كما يدل عليه الكتاب الكريم ، والذى فطن له علماؤنا الأولون ، هو المعنى الذى يتحدث عنه علماء علم النفس الحديث ، أو من يسمونهم علماء علم النفس الاجتماعى ، إذ يقولون : « إن المجتمعات إذا كانت مكونة من أفراد يسودها التفاؤل والإشراق النفسى والرضا ، والرجاء ، والمرح ، فإنها تكون أقوى إنتاجا وأثبت على الحوادث والنوازل ، وأقرب إلى تحقيق السعادة ، وإلى أن تكون لهم الحياة الميسرة الناشطة ، ولذلك يعمد أهل التوجيه وأهل القيادة فى الشعوب دائماً إلى أن يبثوا فى الأمم وفى المجتمعات روح الاستبشار ، وروح التفاؤل ، وأن يصوروا للناس الحياة القائمة على هذا اللون من الإشراق النفسى ومن الرضا ، ومن الاطمئنان القلبى ، لأنهم يعلمون أن ذلك فيه حياة لشعوبهم ، وأنه فى الوقت نفسه فيه تحريك للهمم ، وفيه بعث للنشاط ، وفيه تقوية للروح المعنوى فى المجتمعات ، حتى لقد لاحظوا ذلك فى الحيوان الأعجم ، فإن مجتمعا من الحيوان يكون فيه مرح وأسباب تبعثه على السرور ؛ يكون مجتمعاً ناشطا ذكياً متوقدا ، وإذا كان يقصد لشىء من الأشياء العملية فى خدمة الآدميين ، فإنه يؤدى هذه الخدمة وهو مشرق ، مسرور متفائل مستبشر ، يؤديها أحسن الأداء .

أما إذا كان الحيوان الأعجم كسير النفس ذليلا ، وكانت معنوياته

- وللحيوان معنوياته كما للإنسان - أقول : وكانت معنوياته هابطة ؛ فإنه حينئذ يكون ضعيف الانتاج - قليل الثمرات ، ويكون متأبيا على الإنسان ، غير منساق إلى ما يسخره له من الأعمال . فالاستبشار والتفاؤل والمرح والسرور هى إذن فى مصلحة المجتمع وفى مصلحة التشمير ، وفى مصلحة الإنتاج ، ولذلك يقولون لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس .

* * *

والقرآن الكريم يسرى فيه روح التبشير واضحا جليا ، ويحدثنا الله سبحانه وتعالى عن كثير من البشارات فى حياة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده ، كما يحدثنا بتبشيره للمؤمنين :

فإبراهيم عليه السلام يسأل الذين بشروه فيقول لهم : « أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون • قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين • قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون »[1] فهو يتحدث عن القنوط ملازما للضلال ، ويقرر هذا حقيقة يفقهها ويفهمها ولا يجد مجالا للمجادلة فيها ؛ وذلك مما علمه الله تعالى .

وفى قصة يوسف عليه السلام : أن يعقوب قال لأبنائه « إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون »[2] فيقول بعض المتصوفة إبرازاً لمعنى الرجاء وموازنة بينه وبين الحزن والخوف : إن الله سبحانه وتعالى عاتب يعقوب فقال له : لم خفت الذئب ولم ترجنى ؟ وكان ما كان من أمر يوسف ، فلما انبعثت فى نفس يعقوب الآمال ، وعاد إلى ما هو أولى به من حسن الرجاء فى الله سبحانه وتعالى ، وقال لأبنائه « عسى الله أن يأتينى بهم جميعا »[3] وقال لهم « فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون »[4] وقال لهم « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح

الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »[1]؛ نظر الله إليه نظرة لطف ورحمة فأعثره على ابنيه جميعا ، فوجد يوسف كما وجد أخا يوسف ، وعاد إلى هذا البيت الحزين إشراقه وبهجته وأمله فى الحياة : « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » .[2]

وفى قصة موسى عليه السلام يحدثنا الله سبحانه وتعالى أن أمه لما أمرت بإلقائه فى اليم اضطرب فؤادها ، وذلك قوله سبحانه وتعالى : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » .[3]

وماكان ربط الله على قلب أم موسى إلا بهذا الوعد الصادق المبشر : « فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين» .

هذه البشارة إذن قوّت قلب أم موسى وثبتته بما عبر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله : « لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » .

وفى قصة المسيح عليه السلام : أن الله سبحانه وتعالى أمر الملائكة بأن تبشر مريم بكلمة منه اسمه المسيح .

وفى قصة زكريا عليه السلام : أن الله بشره بغلام اسمه يحيى .

وعيسى نفسه كان مبشراً برسول يأتى من بعده اسمه أحمد .

والله سبحانه وتعالى « يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا ماكثين فيه أبداً »[4] « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا » .

وفى القرآن الكريم : « وبشر المؤمنين » ، « وبشر الصابرين » ، « وبشر المحسنين » ، « وبشر المخبتين » . مما يعطينا صورة كريمة عن هذا الروح الذى

(1) الآية : ٨٧ من سورة يوسف (2) الآية : ٩٦ من سورة يوسف
(3) الآية : ١٠ من سورة القصص (4) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة الكهف

يريد الله سبحانه وتعالى أن يبثه فى المجتمع : مجتمع أهل الإيمان ، وهو روح التبشير ، والنبى صلى الله عليه وسلم قد بعث رسولين إلى بعض الجهات ليعلما الناس روح الإسلام ، وأحكام الإسلام ، فكان من أول ما أوصاهما به أنه قال لهما : « بشّرا ولا تنفرا ، ويسّرا ولا تعسرا » . هذا كله يدلنا على أن الإسلام يحب التبشير ويحب التيسير ، وأنه رسالة رحمة ، لا رسالة يأس ، ولا رسالة قنوط ، ولا رسالة حزن ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل » . فهذا الذى يلتجىء فيه الرسول إلى ربه أمر خطير من شأنه أن يزلزل المجتمعات ، لأن المجتمعات الحزينة اليائسة التى ينطوى أفرادها كل منهم على نفسه حزيناً منكسرا مُبْلسا لا يمكن أن تكون مجتمعات سعيدة ، ولا يمكن أن تكون مجتمعات قوية ، إنما القوة فى الاستبشار وفى الرجاء ، وفى الأمل ، وفى الفرحة القلبية التى تشوق إلى العمل .

* * *

والقرآن الكريم ليست دعوته إلى التبشير والتفاؤل مجرد نصائح ، ومجرد وصايا لفظية ، وإنما هو يرسم المنهج العملى فى الحياة ، ليصبح المجتمع مجتمعاً متفائلا مستبشراً .

إن أهم ما يقلق الناس ـ مثلا ـ فى حياتهم هو الرزق . فالقرآن يعلّم الناس أن الله سبحانه وتعالى « هو الرزاق ذو القوة »(١) ويعلمهم : أنه تكفل بالرزق لكل مخلوق ، وأنه يرزق حتى الدواب : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم »(٢)

بل يعلمهم أيضا أن الله سبحانه وتعالى يرزق حتى العاصى ، وحتى الكافر ولا يحول العصيان أو الكفر بين عبد وما قدر له من رزق ، وفى الحديث

(١) الآية ٥٨ من سورة الذاريات (٢) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

الشريف : « إن الله يعطى الدنيا من أحب ومن لم يحب ، ولا يعطى الدين إلا من أحب » . ويقول بعض الصوفية : إنه مر بإبراهيم الخليل عليه السلام رجل مجوسى فاستضافه (يعنى طلب من إبراهيم أن يضيفه عنده) . فقال له : أمسلم أنت ؟ فعلم أنه مجوسى فاعتذر عن إضافته ، فأوحى الله إلى إبراهيم : « يا إبراهيم إن لى خمسين سنة أطعمه وأنا أعلم أنه مجوسى وأرزقه وأنا أعلم أنه مجوسى ، وأنت لا تطيق أن تضيفه ليلة واحدة على ما تعلمه فيه من الكفر فعرف إبراهيم أنه أخطأ ، وذهب إلى هذا المجوسى فأنزله عنده وأجابه إلى ما طلب وحدثه بما أوحى الله به إليه ، فأشرق قلب المجوسى للإسلام وأسلم .

فهذا المعنى الذى نراه مثبتا فى القرآن الكريم ، وفى السنة ، وفيما يروى من الآثار ، وفى تفكير المفكرين من المتصوفة وغيرهم ؛ يدلنا على أن الإسلام يريد أن يغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين من ناحية الرزق ، فإنه إذا علم الإنسان أن رزقه مكفول ، وعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يقطع عنه الرزق ؛ وجد عنده قدر عظيم جداً من الرجاء : فينبعث إلى العمل ولا يخمل ، وبذلك يتسع رزقه وتكثر ثمراته ، أما إذا علم أنه قد يحرم الرزق وقد يموت جوعا : فإنه يظل فى حياته حزينا كاسف البال متهيبا للسعى ، خائفا وجلا ، فتربية المؤمنين على إدراك هذه الحقيقة هى مصلحة اجتماعية ، لأنها تبعث فيهم الاطمئنان القلبى ، وتحثهم على العمل وعلى النشاط .

والله سبحانه وتعالى يعلم أن من أسباب قنوط الناس أن يتسلط عليهم الخوف من الأعداء — وكل أمة لها أعداء وكل جماعة لها منافسون — فإذا تسلط الخوف على أمة من الأمم ، وقدرت أنها أقل من أن تواجه أعداءها ومن أن تجابه تكتلاتهم ، فإنها حينئذ تضطرب وتضعف ، وتهبط فيها الروح المعنوية ، لذلك نرى أهم شىء بالنسبة للأمم وبالنسبة للجيوش :

تقوية الروح المعنوية فى نفوس الناس ، والله سبحانه وتعالى يربى المؤمنين على أن يؤمنوا بأنه سينصرهم إذا نصروه « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز »(١) ، « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »(٢) هذا المعنى إذا استقر فى نفوس الناس : كانت له فائدة عظمى ، فإنه يثبت قلوبهم ويجعلهم أقدر على مجابهة خصومهم ، وعلى مقاتلة أعدائهم ، ويجعلهم فى نفس الوقت أصحاب أهداف ، لأن الله لم يهبهم النصر هبة ، وإنما وهبهم النصر بشرط أن يكونوا له ، وبشرط أن يكونوا معه ، وأن يعملوا بشريعته ، وأن يسيروا على منهاجه فبذلك يقدمون على مقاتلة أعدائهم ومجاهدة خصومهم بروح صاحب المبدأ الذى له هدف معين . ومن كان له مبدأ فى جهاده فلا يمكن أن يهزم ، فهذا المعنى هو فى الواقع معنى تربوى صحيح يؤخذ من القرآن الكريم ، والله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه .

وهناك شىء آخر من المنهاج العملى الذى رسمه القرآن الكريم لكى يصبح المجتمع مجتمعا متفائلا ثابتا على النوازل والأحداث : ذلك هو بيان أن العلاقة بين الله وبين عباده ليست علاقة قائمة على الجبروت وعلى القسوة ، وإنما هى علاقة قائمة على الرحمة ، وعلى التبشير ، وعلى قبول توبة التائب إذا عاد إلى الله سبحانه وتعالى .

خيال الفلاسفة ، حقيقة الإسلام

يحدثنا أهل التاريخ أن بعض الفلاسفة تخيلوا ما يسمونه « المدينة الفاضلة » أو « المجتمع المثالى » وبعض الناس اتبعوهم فى هذا الظن ، فظنوا أن البشرية سيأتى لها يوم من الأيام تكون فيها مجتمعات مبرأة من الأخطاء ومبرأة من الذنوب .

والواقع أن هذا أمل عذب يراود الناس من قبيل الخيال ، فهؤلاء

(١) الآية : ٤٠ من سورة الحج (٢) الآية : ٧ من سورة محمد

قد نسوا أن الإنسان هو الإنسان ، وأنه مركب من طبيعة تجعله يخطىء حتما في بعض الأحيان ويذنب في بعض الأحيان - أما الإسلام فإنه قد درس الإنسان وفهمه وفهم طبيعته هذه ، انظروا إلى قوله تعالى وهو يحدثنا عن جزء من هذه الحقيقة الكبرى في خلق الإنسان فيقول : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » (١)

فالله سبحانه وتعالى يعرفنا بأن الملائكة عند ما علموا أن الله سيختار خليفة في الأرض هو هذا الإنسان قالوا سائلين الله سبحانه : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ؟ مما يدل على أنه قد بدت من صفات هذا المخلوق أشياء جعلت الملائكة يعلمون أنه مخلوق يصدر منه بحسب تكوينه الشر والإفساد وأنه ليس مثلهم مخلوقا مطيعا « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » وإنما هو مخلوق تصدر منه الأخطاء وتقع منه الذنوب ويقع منه الشر والإفساد ، فقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك » يعني نحن خير كلنا . وأما هذا الإنسان فقد يصدر عنه الشر أحيانا ، وقد يصدر عنه الإفساد أحيانا ، فنحن أولى بالخلافة في الأرض من هذا المخلوق - فالله سبحانه وتعالى استمع إلى ما قالوا ورد عليهم برد فيه إجمال لإبطال دعواهم حيث يقول : « إني أعلم ما لا تعلمون » يعني : إني مع وجود هذا المعنى في الإنسان ، ومع كونه مخلوقا على هيئة وتركيب يجعله مصدرا في كثير من الأحيان للشر والإفساد فإنني أعلم من مقدراته ، ومما وهبته من المواهب أن له مزية عليكم تقتضي أن يكون هو الخليفة في الأرض - فليس الإفساد في بعض الأحيان بمانع من أن يكون هذا المخلوق خليفة في الأرض

(١) الآيات: ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣ من سورة البقرة

وليس انطباعكم بالصفات التى تجعلكم لا تعصون الله ـ ليس هـذا بذاته ـ مقتضيا بأن تكونوا خلفاء فى هذه الأرض ؛ إن الله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء كلها ، أى علمه خواص الأشياء وكيف يتتبعها ، وكيف يختبر ، وكيف يفكر ، وكيف يستنتج النتائج من المقدمات ويحصـل على المجهولات من المعلومات ، فالإنسان طلعة منذ الصغر ، حتى إننا نجد أن الطفل الصغير إذا أمسك بلعبته فإنه يحاول أن يتدبرها ويقلبها فى يده وربما حطمها ، لأنه طُلَعةٌ يريد أن يعرف ما هى .

فهذه الخاصية فى الإنسان هى التى تجعله صالحا لأن يكون الخليفة فى هذا الكوكب ، ولأن يعمر هـذه الأرض ـ فالله سبحانه وتعالى لم يمنعه ما يعلمه من أن الإنسان قد يصدر عنه الشر ، وقد يصدر عنه الفساد ، من أن يجعله خليفة فى هذه الأرض .

عوامل الفتنة والإغراء

وهناك جزء آخر يبينه القرآن الكريم من هذه الحقيقة الكبرى ، وهو أن الله خلق بجانب هـذا المخلوق عوامل الإغراء ، وعوامل الفتنة ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناء؟ قال أرأيتك هـذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ، قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصـوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعـدهم وما يعـدهم الشيطان إلا غرورا ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا »[١] هذا الجزء من الحقيقة الكونية يدلنا على أن الله خلق بجانب هـذا المخلوق الذى جعله خليفة فى الأرض ، إبليس وذريته ، وجعلهم فتنة للإنسان ، فالإنسان محاط بعوامل من داخله ومن تركيبه الخلقى من ناحية الرغبات

(١) الآيات : من ٦١ الى ٦٥ من سورة الإسراء

والشهوات ، ومحاط أيضا بعوامل الإغواء والإغراء والفتنة من الشيطان الخارجي ، فهو إذن محاط بهذا وذاك من الداخل والخارج ، فهل يتصور أن الله سبحانه وتعالى وهو الذي خلقه على هذا النحو ، وهو الذي سلط عليه هذه القوة تتميما للاختبار والابتلاء والامتحان ، هل يتصور مع ذلك أنه يريد من البشر أن يكوّنوا مجتمعا ملائكيا لا تظهر فيه أخطاء ولا تقع فيه ذنوب ولا يمكن أن يحصل للناس فيه آثام ؟ هذا لا يمكن ، ولهذا يقول القرآن : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .(1)

عنوان: أهداف التشريع

والله سبحانه وتعالى وهو الخلاق العليم ، نظم شريعته وطبقها في حدود هذا الأساس ، ولذلك نجد أن القرآن الكريم يبين لنا الغاية من التشريع ، وأنها ليست غاية تعسفية ، وهو لا يريد أن يشرع للناس لمجرد أن يكبلهم بقيود ، ولا يريد أن يشرع للناس ليثقلهم بالأغلال والآصار ويخرج بهم عن طبيعتهم ، فيقول الله سبحانه وتعالى في ثلاث آيات مبينة لأهداف التشريع ولطريقة التشريع : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » .(2)

انظروا معي إلى هذه الآيات الثلاث ، تجدوا أن الآية الأولى تحصر أهداف التشريع في ثلاثة أشياء : « يريد الله ليبين لكم » : البيان « ويهديكم سنن الذين من قبلكم » : توفير التجارب الطويلة على الإنسان « ويتوب عليكم » أي يطهركم ، فكأن الله سبحانه وتعالى ينادي عباده ويناشدهم قائلا لهم : يا عبادي إنني لم أشرع لكم ما شرعت رغبة في إثقالكم وتقييدكم ،

(1) الآية ١٦ من سورة ق . (2) الآيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة النساء .

ولكننى أردت أن أبين لكم ، لأن الإنسان إذا وكل إلى عقله فإن العقول تتفاوت وتتضارب ، وقد يرى عقل ما لا يراه عقل آخر ، فلا بد من فيصل حاكم بين العقول ـ ونحن نشاهد أن المذاهب والأفكار والمناهج التى يضعها أرباب العقول تتضارب فى كثير من الأحيان وتشتجر ، فيكون هنالك مذهب نازى ، ومذهب اشتراكى ، ومذهب شيوعى ، ومذهب رأسمالى ، إلى غير ذلك ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، فالعقول تتفاوت ، وقد ترى حسنا ما ليس بالحسن من باب المغالطة ، فإن للعقول خداعا كما أن للبصر خداعا ، والله سبحانه وتعالى يريد بما شرعه على ألسنة الأنبياء والرسل يريد أن يبين للناس ، وأن يحسم ويفصل بين ماهو حق وما هو باطل ، وبين ماهو خير وما هو شر ـ ويقول لعباده : لم أرد تقييدكم ولم أرد التحكم فيكم ، ولكن أردت معاونتكم ، والبيان لكم ، وعدم ترككم لمجرد العقول ، فإن العقول تضطرب وتختلف ـ وفى الجزء الثانى من الآية يقول : « ويهديكم سنن الذين من قبلكم » ، ولا شك أن الإنسان يستفيد من التجارب الماضية ومن عبر التاريخ ، فالله سبحانه وتعالى يقول لعباده : إن من أهداف التشريع أن يوفر عليكم المرور بعصور من التجارب تنتقلون فيها من حالة إلى حالة ، ومن إدراك شىء على أنه حسن إلى إدراكه وتهذيبه على أنه شىء آخر .

فهذه التجارب ، أنا سأوفرها عليكم ، وأهديكم سنن الذين من قبلكم ؛ ففيها عظات لكم ، فإذا سقت إليكم عبر الماضين فكأنكم مررتم بالتاريخ كما مر به الماضون ، وكأنكم استفدتم دون أن تضيعوا أوقاتكم ، وهذا هو معنى « ويهديكم سنن الذين من قبلكم » .

أما الجزء الثالث من هذه الآية فهو قوله : « ويتوب عليكم » فالتوبة من الله على العباد معناها : أنه يقبل توبتهم حين يقعون فى الذنوب

فيطهرهم ، ولذلك جاءت الآية التالية بعد ذلك تحدد أن الله سبحانه وتعالى إنما يريد أن يطهر المجتمع بالتوبة على أفراده ، لأنهم حين يتوبون من ذنوبهم ويتوب الله عليهم : يكونون كمثل رجل له ثوب كان قد تدنس وأصابته أقذار ، ثم هو قد غسل هذا الثوب ونقاه وطهره ، فكذلك النفوس تخطىء وتقع فى الإثم ، فلو تركت وأدرانها هذه بدون التوبة فإنها تظل عالقة بها ، وتظل مقلقة لها ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبعث فى نفوس الناس بالتوبة روحا جديدا ، ومعنى جديدا : هو بمثابة رد اعتبار للمذنب وللمخطىء ، ويطهرهم بذلك فيشعر المذنب كأنه يستقبل الحياة فى ابتسام وفى أمل جديد ، ويعلم أنه أصبح غير ملوث ، بل أصبح مطهرا .

أما أصحاب الفتن الذين يتبعون الشهوات فإنهم يريدون من الناس أن يميلوا ميلا عظيما .

وهنا نرى الله سبحانه وتعالى يقارن بين دعوتين هما دائما فى كل مجتمع : دعوة الخير والإصلاح والرشاد والاستقامة والاستمساك من جانب ، وهى دعوة الله والرسل والمصلحين . ودعوة أهل الشر والفساد والذين ينادون بالانحلال ، وينادون بالسقوط ، وينادون باتباع الشهوات ، وهى المعبر عنها بقوله تعالى : « ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » وليس اتباع الشهوات فقط فى جانب العقيدة ، أو فى جانب العمل ، وإنما هو فى جميع الجوانب : نرى الدعوة المتحللة ، نرى الإباحية تبرز فى كل مجتمع مقابل دعوة الإيمان ودعوة الخير ودعوة البناء ، نجد أن الإباحية تتدخل فى العقائد ، وتقول لنا لماذا نعتقد ؟ لماذا نكبل أنفسنا بالعقيدة ؟ فليترك الإنسان حراً يفكر كما يشاء متخففا من العقيدة ، وهم يجهلون أن العقيدة قوة باعثة وليست قوة مثبطة ، وإنما هى قوة تبعث الإنسان فى الحياة على العمل ،

فإن الذى يعمل وبين عينية عقيدة وفى قلبه إيمان ، ينشط للعمل ويقبل عليه خطوات بعد خطوات ، أما الذى ليس بمؤمن ، وليس عنده عقيدة ، فليس له هدف فى الحياة .

وهـذه الإباحية كما نراها فى الدعوة إلى التحلل من العقائد ، نراها أيضا فى الدعوة إلى التحلل من المثل والفضائل . يقولون لنا من الذى شرع هـذه الفضائل . وقيد الناس بها ؟ .

إن الذى عـده الناس خيراً إنما هو اصطلاح لهم واصطلاح لجيل من الأجيال مضى ، فالرذيلة والفضيلة ليست حقائق وجودية ، وإنما هى حقائق اعتبارية أو مسائل اعتبارية ، ولو اعتبروا الزنا فضيلة لكان فضيلة ، ولو اعتبروا الزواج رذيلة لكان رذيلة ، هـكذا يزعم الإباحيون المتحللون فيقولون من الذى جعل الجيل الأول يتحكم فى جميع الأجيال الآتية إلى يوم القيامة ، فهو الذى يشرع لهم الحسن ، وهو الذى يشرع لهم القبيح ، وهو الذى يحدد لهم الرذيلة ، ما لنا نحن ولهذا ؟ فلنسر فى هـذه الحياة أحرارا وجوديين نفعل ما نشاء ونتمتع بما نشاء ، فليس العفاف بزينة المرء أو المرأة ، ولو أن المرأة فجرت أو رقصت أو سكرت لما كان عليها من بأس : فهؤلاء يريدون قلب الحقائق ، ويريدون أن يحولوا ما أمر الله به سبحانه وتعالى من الحسنى ومن المثل الصالحة إلى أشياء موهومة أو مشكوكة ، ذلك لأنهم يتبعون الشهوات « ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » .

* الهدف الثالث فى هذه الآيات : حيث يقول الله سبحانه : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » فهو يقـول لعباده : يا عبادى أنا الذى خلقتكم ، وأنا الذى طبعتكم على صفاتكم وملكاتكم ، وأنا الذى أعطيتكم القوى وأنا العـالم بأحوالـكم ولا يغيب عنى شىء منكم ، فأنا شرعت ما شرعت ، وأنا عالم بصير بأحوالكم ، فلا يمـكن مطلقا أن أكلفـكم ما لا تطيقون .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »[1] أنا أعرف أنكم ضعفاء ، وأعرف أنه يحدث لكم أحيانا شهوات ، وأحيانا رغبات فأنا لم أجعل دينى مناهضا ولا شريعتى مقاومة للفطرة الإنسانية ، وإنما هى محققة للفطرة الإنسانية وإن كانت مهذبة لها لأن تهذيب الفطرة مما تأذن به الفطرة ، ولذلك كانت شريعة الإسلام « هى فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » .

فى هذا الجو كله يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقر فى نفوس عباده أن التشريع ليس تقييدا لهم ، ولا تكبيلا لهم ، وأنه ليس افتئاتا عليهم وإنما هو معاونة لهم ، ويريد أن يبين لهم أنهم بين دعوتين : دعوة تدعوهم إلى الخير والمعروف والصلاح والرشاد والاستقامة ، ودعوة أخرى تدعوهم إلى ضد ذلك من الانهيار والانحلال .

عنوان : شيوع فى العلوم

وإننا نرى هذا الانهيار وهذه الدعوة الانحلالية أيضا حتى فى العلوم وفيما ندرس : يقولون مثلا : لماذا ندرس النحو فى كتاب الأشمونى ؟ لماذا لا نتخطف القواعد النحوية من أى كتاب سهل يسير فإن الزمان لم يعد ينتظرنا ؟ ويقولون مثلا لم نتقيد فى الأدب بهذه الألفاظ القوية ؟ فلنعبر بعبارات سهلة يسيرة ـ الواقع أنهم عجزوا عن أن يحتملوا عبء هذه الأثقال التى لا يحملها إلا أولو العزم ، فلما عجزوا عنها أرادوا أن يغيروا الناس إلى مثل حالتهم حتى يكون الجميع سواء فلا يتميزوا هم بالضعف فى الأمة . وهؤلاء هم الملحدون بالشعر وهم الملحدون بالنحو ، وهم الملحدون بالفقه ، كما أن هناك ملحدين فى العقيدة ، وملحدين فى المثل ، وملحدين فى الفضيلة .

عنوان : القرآن وطبيعة الإنسان

ونعود بعد هذا إلى النسق الذى كنا فيه فنقول : تمشيا مع هذا ، نجد القرآن الكريم فيه ظواهر تدل على هذا الروح ، روح إدراك مدى طبيعة الإنسان ، نجد أنه مثلا عند ما يتحدث عن المتقين لا يصور لنا المتقى كأنه ذلك الرجل

[1] الآية ٢٨٦ من سورة البقرة

الذى يطير بجناحين كالملائكة ، والذى هو دائماً فى الصف الأول فى المسجد ، وإنما يصوره بأنه رجل أدرك أن له ربّا ، وأنه سيحاسبه وهو مطلع عليه « إن الله كان عليكم رقيبا »(١) ، « إن الله كان على كل شىء حسيبا »(٢) وهذا هو المعنى الذى عبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وهو تربية للضمير فى نفس الإنسان ليس إلا ، فالتقوى ليست مجرد الإكثار من الصلاة وأن تكثر من التسبيح ، وأن تتزيا بزى الصالحين ، إنما التقوى هى قبل كل شىء : ضمير يحاسبك ، نفس لوامة تتأمل فى كل شىء ، وتسأل نفسها عن كل شىء ، فإن رأت خيراً اطمأنت وقرت ، وإن رأت شراً عدلت عن هذا الشر ورجعت ، ولذلك نرى القرآن الكريم يقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين »(٣) ثم يصف المتقين فيقول : « الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس » ويقول : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون »(٣) فالقرآن يحدثنا عن المتقى بأنه قد يقع منه الذنب أحيانا ، فليس المتقى هو ذلك الذى لا يقع منه الذنب أصلا ، وإنما قد يقع منه الذنب ، وقد تقع منه الفاحشة ، والفرق بينه وبين غير المتقى : أن غير المتقى يستمرىء الفاحشة ويستحسن الذنب ويستحبه ، ويتمنى أن يعود إليه ، أما المتقى فإنه إذا وقع فى ذنب أحس بأنه أذنب ، وأحس بأنه أخطأ ، وأحس بأن عليه واجباً فى الرجوع إلى الله ، ولم يُصِرّ على ما فعل فعاد إلى ربه سريعاً فوجده غفوراً رحيما ، فالمتقى إذاً ليس شخصاً خياليا ، وإنما هو شخص مِنّا ، ومن واقعنا ، وفى وسطنا ، فكل إنسان يستطيع أن يربى نفسه على أن يكون متقيا إذا كان له ضمير حى يحاسبه ، وإذا كان بحيث لو زلت به قدم ندم ، أما ذلك الشاعر الذى يقول :

آل عمران

(١) الآية الأولى من سورة النساء (٢) الآية : ٨٦ من سورة النساء (٣) الآيات : ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥

هل الله عاف عن ذنوب كثيرة   أم الله إن لم يعف عنها يعيدها

فذلك هو الذى يستحسن الذنب ، ويوازن بين العفو وبين عودة الذنوب ، فكأنه يقول لربه : يارب لقد مرت بى ذنوب ومرت بى آثام وليال حمراء كما يقولون ، فهل أنت عاف عن هذه الذنوب والآثام ؟ أو إذا لم تكن ستعفو عنها فلا أقل من أن تعيد هذه الليالى وهذه الذنوب وهذه الآثام ، فهذا رجل لم ينفطم عن حبه للذنوب ولم ينفطم عن حبه للآثام ، وهذا هو الفرق بين الماجن المستمرىء ، والمتقى المستبصر ؛ ولذلك يقول القرآن الكريم : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »[١]

وأمر آخر . شرعه الله سبحانه وتعالى كمظهر من مظاهر دراسة الإسلام للإنسان ، ذلك هو التوبة .

إن التوبة فى الإسلام باب عظيم جدا لتطهير الإنسان من أدرانه كما قلت ، والإسلام يحب التوبة ، والله سبحانه وتعالى يأمر بها عباده إذ يقول : « يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا »[٢] ويقول : « وتوبوا إلى الله جميعا »[٣] ولا يكتفى بمجرد الأمر ، وإنما يصور الله تعالى راغبا فى التوبة أشد الرغبة فيقول لنا الحديث الشريف عن الله سبحانه وتعالى : « إذا تقربت إليه شبرا تقرب إليك ذراعا وإذا تقربت إليه ذراعا تقرب إليك باعا وإذا أتيته تمشى أتاك يهرول » هذه المباراة مباراة فى التجاوب ، أنت تقبل على الله المستغنى عنك وأنت محتاج إليه ، فيقبل الله عليك أضعاف ما تقبل عليه ، هذا معنى يدل على شدة الرغبة فى أن يعود العبد إلى الله ويرجع إلى الله وإلى حمى الله ، ومن جهة أخرى نرى الحديث الشريف يقول : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تشرق الشمس من مغربها » .

١ الآية : ٢٠١ من سورة الأعراف ٢ الآية : ٨ من سورة التحريم
٣ الآية : ٣١ من سورة النور

هذا تصوير بديع ، بسط اليد كناية عن الطلب ، والطالب لا بد أن يكون راغبا ولا بد أن يكون متقبلا ، « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » بل إن الله سبحانه وتعالى يصور لنا على لسان رسوله أنه يفرح بتوبة العبد فرحة عظمى ، ففى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله تعالى أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل ركب راحلة وعليها زاده وشرابه ، فنزلت به دوّية من الأرض مهلكة ، ثم أدركته سنة من النوم فنام فلما استيقظ لم يجد راحلته وعليها زاده وشرابه ، فجعل يبحث عنها متلهفا ، فلما أدركه العطش واشتد به الجوع وما شاء الله من البلاء أدركه اليأس وعاد إلى المكان الذى كان فيه وقال لنفسه : سأبقى فى هذا المكان وأضطجع مستقبلا للموت حتى أموت ، فوسد رأسه بذراعه ونام ، ثم استيقظ بعد قليل فوجد راحلته وعليها زاده وشرابه ، فاشتدت فرحته بوجدانه الراحلة حتى قال من شدة الفرح مخطئا فى التعبير : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، فالله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا الرجل الذى فقد راحلته بوجدانه راحلته » .

هذا معنى تصويرى عظيم جداً ، يدل على أن الله لا يأمر بالتوبة فقط ، ولا يحث عليها فقط ، ولا يطلبها من عباده فقط ، وإنما هو يفرح بها جداً كفرحة هذا الرجل بحياته بعد أن ظن أنه كتب عليه الموت ، وأنه صائر إلى الهلاك ، فهذا معنى تبشيرى عظيم جداً .

وكذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى يسر أمر التوبة لأنه أحبها وطلبها ورغب فيها ويفرح بها ، فهو ييسرها فى الإسلام تيسيراً عجيباً : ليس بين العبد وبين الرجوع إلا أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى ويندم ، فالندم نفسه توبة ، ولم يجعل الله واسطة بين العبد وربه فى هذه التوبة حفظا للكرامة ،

وإلا فتصوروا أن امرأة أو فتاة مذنبة وقع منها أمر فاحش فكلفناها بأن تجلس أمام رجل راهب لتدلى إليه باعترافها وتقول له إنى قد أذنبت ذنب كذا : زنيت أو فحشت أو ما إلى ذلك ، أليست بذلك تعرض سرها للانكشاف وتعرض كرامتها للضياع وتعرض حصانتها للتزلزل وتجعل هذا الرجل باعتباره بشرا يطمع فيها ويعلم أنها من الصنف الذى يتقبل ؟

* * *

أين هذا من الإسلام الذى يقول : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »(١) ؟

وفى القرآن الكريم بعد ذلك آيات مبشرات كثيرة : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم »(٢). ويقول الله سبحانه وتعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً »(٣) وهذه الآية يعدها ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما من عدة آيات مبشرات ، ويقول كل منهما : ما أود أن لىَ بها الدنيا وما فيها ؛ فإننا إذا تأملنا هذه الآية وهى قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » نجد أن هذا وعد عظيم جداً من الله سبحانه وتعالى لمن أقلع عن الكبائر ، وفى ظل ذلك طبعا أنه لم يشترط ألا يقع فى الهفوات فكما قلت لكم : إنه يعلم أن المجتمع لا يمكن أن يخلو من هنات ، ولا يمكن مطلقا أن يبرأ من صغائر الذنوب : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم »(٤). فاللمم لا يمكن مطلقاً أن يخلو منه الإنسان .

ولكن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يترك الناس فى غمراتهم ، ولا يحب أن يترك المجتمع مقترفا لكبائر الذنوب والآثام العظمى . مواقف الإثم

(١) الآية : ١٦ من سورة ق (٢) الآية : ٥٣ من سورة الزمر (٣) الآية : ٣١ من سورة النساء (٤) الآية : ٣٢ من سورة النجم

الكبرى يريد الله أن يبرىء منها المجتمع ، فهو يجعل براءة المجتمع وتطهير المجتمع من مواقف الإثم العظمى التى يعبر عنها بالكبائر هو بذاته خير لهذا المجتمع ، وهو بذاته أمر يستحق عليه كل فرد أن يثاب ، وأن يدخل مدخلا كريما ، وليس فى الآية ما يدل على أن المدخل الكريم هو فى الآخرة فقط « ويدخلكم مدخلا كريما » . بل لنا أن نفهم أنه فى الدنيا والآخرة ، فمن أقلع عن الكبائر ومواقف الإثم الكبرى ، فله أن يستبشر وله أن يؤمل خيراً فى أن الله سبحانه وتعالى سيغفر له ذنوبه الصغرى ، وفى أنه سيعطيه فوق ذلك جزاء إيجابيا ، ويدخله فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة مدخلا كريما .

ولذلك يعتبر أهل العلم بالتربية النفسية هذا المعنى سياسة عظمى جداً من الإسلام ، لأنه بذلك يربط المجتمع بالدين ، ويفهم أفراده بأن الدين ليس أمراً تعسفيا ولا تزمتيا ، وإنما هو أمر متيسر يستطيع الفرد العادى فى المجتمع أن يصاحبه وأن يتقبله وأن يعيش فى ظلاله ، دون أن يرى على نفسه حرجا ودون أن يشعر بأنه مكبل ، مترصدة عليه هفواته ، يحاسب على النقير والقطمير ، ويعامل بقسوة من الله سبحانه وتعالى ، وإنما يريد الله أن يعلم العبد أنه إذا أقلع عن مواقف الإثم العظمى ، فإنه يكون بذلك متعرضا لرحمة الله ، ولإحسان الله ، لأن المجتمع حينئذ يتطهر من الذنوب الكبيرة ومن المفاسد .

ولذلك انظروا إلى هذه الذنوب الكبائر . ما هى الكبائر ؟ هى الإشراك بالله ، عقوق الوالدين ، أكل مال اليتيم ، شهادة الزور ، اليأس من روح الله ، القنوط من رحمة الله ، القتل ، كل هذه من الكبائر ، فحدثونى بربكم إذا تطهر المجتمع من هذه الكبائر وأمثالها ، فلم يعد فيه من يأكل مال اليتيم ظلما ،

ولم يعد فيه من يستضعف المرأة ، ولم يعد فيه من يفسق ، ولا من يزنى ، ولا من يشرب الخمر ، ولا من يلعب القمار ، ولا من يفعل أى لون من ألوان الكبائر ، إن هذا المجتمع قطعا يكون مجتمعا نظيفا ، مجتمعا سعيدا ؛ لا يهمنى بعد ذلك أن يقترف من صغائر الذنوب ما أنا واثق من أنه سيغفره الله له ، وليس معنى هذا أن الذنوب الصغائر مباحة للناس ولهم أن يقترفوها ، ولكننى إنما أقول ذلك لأننى أتمثل الإسلام كما أتمثل القائد الماهر فى جيش عظيم ، جيش قد يتعثر فى بعض المواقع أو فى بعض النواحى عثرات صغيرة ، فلا ينبغى للقائد أن ييئسه من النصر ، ولا ينبغى للقائد أن يشغله بهذه الصغائر ، وإنما يجب عليه أن يوفره وأن يوفر عزمات رجاله ويوفر جهادهم وإقبالهم على المعارك الكبرى .

فالمجتمع الإسلامى فيه معارك كبرى فى مواقف الإثم الكبرى ، والإسلام يريد أن يوفر لهذه المعارك كرائم الجهود وعظائم العزمات ليتمكن المجتمع قويا من تطهير نفسه منها ، ولا عليه بعد ذلك إن وقع فى الصغائر ، فإن الصغائر فى جانب رحمة الله كاللمم ، وقد فطن لهذا المعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد وجدت فى بعض ما كتب(١) تفسيراً لقوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » أن جماعة من المصريين لقوا عبد الله ابن عمرو بن العاص فى مصر وكانو قوما متزمتين فقالوا له : إننا نجد فى كتاب الله أموراً يجب أن تفعل فلا تُفعل ، ونجده يأمر بأن تُترك أشياء فلا تُترك ونريد أن نسافر إلى أمير المؤمنين لنقول له ذلك ، ولنسأله كيف ترك الناس على هذا النحو ، فذهبوا وذهب معهم عبد الله بن عمرو فلما لقوا عمر بن الخطاب فى المدينة قال لعمرو : متى قدمت ؟ قال قدمت أمس يا أمير المؤمنين . قال أبإذن قدمت ؟ - ينكر عليه قدومه بغير إذن - فقال له : إن قوما من أهل

(١) الخبر رواه ابن جرير عن الحسن ، ورواه ابن كثير فى تفسيره للآية

مصر سألونى وقالوا كذا وكذا ، ففزع عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجاء إلى هؤلاء القوم فاستعرضهم واحداً واحداً وقال لكل منهم ؟ سألتك بالله أتحفظ القرآن كله ؟ قال نعم ، قال : هل أحصيته كله فى فهمك ؟ قال لا قال : هل أحصيته فى بصرك ، هل أحصيته فى سمعك ، هل أحصيته فى عملك ، هل أحصيته فى أدبك ، هل أحصيته فى أثرك ؟ - « وهنا غضب وانفعل » - ففى كل مرة يقول الرجل لا . ومر عليهم جميعا فيقولون له : لا ، ثم قال عمر بن الخطاب: ثكلت عمرَ أمّه أتريدون منى أن أقيم الناس على ما فى كتاب الله حرفا بحرف لا يشذون عن شىء منه ، إن الله سبحانه وتعالى وهو ربكم الأعلى يقول : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » ثم قال لهم : هل علم أهل المدينة بما جئتم فيه قالوا لا ، قال والله لو علمت أن الأمر قد أثير فى المدينة أو انتشر لأوجعن ظهوركم ضربا بالسياط عقوبة لكم على أنكم تريدون أن تبثوا فى المجتمع دعوة التزمت والإقناط وإشعار المجتمع بأنه مجتمع خارج على الدين .

ولذلك أنا فى مقامى هذا ، أوصى إخوانى من أهل العلم أن يكونوا فى كثير من المواقف أصحاب سماحة كما هم أصحاب فضيلة ، وأن يكونوا أصحاب سهولة وتيسير ، وأن يلتمسوا المعاذير للناس فى بعض الأحيان فإنك إذا التمست المعذرة لعاص اقترف بعض الآثام الصغيرة فربما حببته فى الإسلام وربما قربته إلى الإسلام ، ولكن إذا ظللت دائما تشعره بأنه ساقط مذنب خارج على الإسلام بعيد عن القرآن غير مستمسك بأهداب الدين فإنه يقول لك كما قال ذلك الشاعر :

أم الله إن لم يعف عنها يعيدها

إذن نحن فى جو من القرآن الكريم ، نشعر فيه بأن الله يريد أن يقر فى

الناس روح التفاؤل ، وروح الاستبشار ، يقول الله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ويقول الله سبحانه وتعالى : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما » « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما » انظروا إلى قول الله تعالى : « لوجدوا الله توابا رحيما » فإن فيه إشعاراً بمعنى التجاوب السريع ، فإن الله هو التواب الرحيم ، وهو موجود على هذه الصفة أزلا وأبدا ، فمجيء التعبير بأنهم إذا رجعوا إليه وجدوه كذلك ، فيه تصوير لمعنى التجاوب من الله ، كأنه يقول لهم يا عبادي أنا لا أكلفكم شططا وأنا ربكم ، ارجعوا إلى تجدوني حاضرا لست بغائب ، وتجدوني حاضرا على صفاتي الأزلية ، من الغفران ومن التوبة ومن التقبل ، فإلىّ إلىّ أغفر لكم ذنوبكم وأشملكم برحمتي وإحساني .

* * *

من هذا كله أيها السادة نتبين الحقائق الآتية :

أولا : أن المجتمعات لا يمكن أن تكون سعيدة إلا فى ظل التفاؤل والاستبشار ، وأن اليأس والقنوط قاتلان للمجتمعات قاتلان للأفراد مخيبان للسعي ، معجزان للإرادة ، شالان للتفكير . هذه حقيقة .

الحقيقة الثانية : أن القرآن الكريم ، والدين الإسلامى قد قاما على أساس أن يبشرا الناس ، وأن يقرا فى النفوس أن رسالة الإسلام فى المجتمع هى رسالة تبشير وتيسير لا رسالة تزمت وتعسير .

الحقيقة الثالثة : أن الإسلام قد درس حالة الإنسان أو هو يعرفها لأنه هو الدين الذى أوحى به الرب الخالق للإنسان ، الذى يعلم ما توسوس به نفسه ويعلم أنه استخلفه وقد علم أنه مفسد أحيانا ، ميال للشر فى كثير من

الأحيان ، وعلم أنه سلط عليه قوى من طبيعته فى داخل نفسه ، وقوى من خارجه بإبليس اللعين وذريته ، فهو قد بنى تشريعه ومعاملته للإنسان على أساس من الاعتراف بهذه الحقيقة ولم يكلفه شططا ، ولم يفرض على الناس أمرا خياليا ، ولم يقل كما قال أحد الفلاسفة إنه يؤمل أن يكون هناك مجتمع مثالى مائة فى المائة لا يكاد أولا يقع منه ومن أفراده شىء من الذنب ولا شىء من الخطأ ، فكان بذلك واقعيا وكان بذلك فطريا ، وهو الأولى بكلمة الواقعية من هؤلاء الوجوديين الذين يزعمون أن واقعيتهم هى السير بالحياة الإنسانية فى مسير البهيمية لأن الإنسان ليس حيوانا فقط ، وإنما هو حيوان له جانب روحى ليس كالحيوان الأعجم .

الحقيقة الرابعة : أن الإسلام يفتح للإنسان باب التوبة والتطهر من الذنوب والآثام ، وأن طريقته فى الحث على التوبة وتيسير أمر التوبة هى الطريقة المثلى التى تتفق وما طبع عليه الإنسان وما فطر عليه .

الحقيقة الخامسة : أن الله سبحانه وتعالى يعد عباده بأنهم إذا اجتنبوا كبائر الآثام والذنوب ، فإن هذا بذاته أمر يستحقون عليه الجزاء الحسن ويستحقون أن يدخلوا بسببه مدخلا كريما ، وهذا قد ورد أيضا فى الحديث الشريف إذ يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اتق المحارم تكن أعبد الناس » فإن اتقاء المحارم والذنوب الكبرى ، هو بذاته عبادة لأنه انكفاف وانفطام عن الفساد ، وأن الله سبحانه وتعالى لا يكتفى بأن يقبل توبة عباده وبأن يدخلهم مدخلا كريما إذا تركوا كبائر الذنوب ، ولكنه يضاعف لهم الحسنات « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما » .

فهذه هى الحقائق أو المظاهر التى من شأنها أن تَبُثَّ فى المجتمع الاستبشار

والتفاؤل ، وأن تدلنا على أن القرآن الكريم يخلق المجتمع المتفائل ، الذى يستطيع أن يمضى فى طريقه قدماً غير هياب ، وغير مثقل بالآثام ولا بشعور الخزى والعار ، بل يجب أن يشعر كل فرد فيه أنه إذا أخطأ أو زلت به قدمه فإن باب التطهر وباب رد الاعتبار مفتوح على مصراعيه . وبذلك نرى أن القرآن أعطى للناس حرية زيادة على الحريات التى يذكرها أهل الاجتماع الحديث وأهل السياسة ، وهى حرية التوبة بعد الخطأ توبة بينه وبين ربه دون وساطة أحد من خلقه ، فيعفى عنه فى خطئه ، فسبحان ربنا العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم ؟

